إسماعيل بن القاسم

المعروف بأبي العتاهية

للأستاذ محمد الكفراوى

حبه الفاشل ومدى تأثيره على حياته

أوضحنا فى المقال السابق مدى تأثير بيئة شاعرنا على شخصيته، وانتهينا إلى أنها قد فرست فى نفس الشاعر عدة أمراض نفسية؛ أهمها التشاؤم والشعور بالضعة والنقمة على الأغنياء، ووعدنا أن نفصل القول اليوم فى شأن ذلك الحب الفاشل الذى زاد حياة الشاعر تعقيدا وأدى إلى تمكن تلك الأمراض الاجتماعية من نفسه

وقصة ذلك الحب تبدأ برحلة الشاعر إلى بغداد طالبا للشهرة، فقد كان يرجو أن يصل ذكره إلى سمع الخليفة المهدى عسى أن يعجب به ويستدعيه لإلقاء الشعر بين يديه. ولكن أنى له ذلك وهو شاعر ناشئ مغمور! لقد هداه شيطانه إلى أن يتغنى فى إحدى جوارى القصر، راجيا أن يدفعها الغرور وحب الظهور إلى ترديد ذلك الشعر فى قصر الخلافة ولفت نظر المهدى إليه

ونحن لا نشك فى أن المصادفات لعبت دورا خطيرا فى حياة الشاعر فجمعت بينه وبين جارية ماكرة طموح من جوارى الخليفة، وقد كانت فى نفس الوقت تبحث عن مثل ذلك الشاعر الناشئ المغرور لحاجة فى نفسها، تلك الحاجة هى التغنى بجمالها وسحرها فى شعره، وغايتها من ذلك لا تكاد تخفى على كل من له خبرة بشؤون ذلك العصر. فقد كانت الجوارى إذ ذاك مطمح الأنظار، ويكفى لتأكيد تلك الدعوى أن نعرف أن الخيزران زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد كانت من بين أولئك الجوارى، ولم يقف بها سعد الطالع عند ذلك؛ بل لقد استطاعت أن تجعل من بنات أخيها زوجات للهادى والرشيد. وليست الخيزران بفريدة فى ذلك الشأن، فقد أقبل الخلفاء على الإماء إقبالا شديدا حتى أن الرشيد قد أنجب من نحو عشر منهن، وناهيك بمن لم ينجب منهن. والدرس الذى يمكن أن تتعلمه الجوارى من مثل تلك الحال غير خفى، فلم يكن يعوز إحداهن لكى تصبح صفية أحد الخلفاء أو زوجه إلا أن تلفت نظره إليها بوسيلة من الوسائل. فما الذى يمنع عتبة والحال كذلك أن تتقبل بصدر رحب غناء ابى العتاهية وإشادته بذكرها.. وهل هناك وسيلة لافت الأنظار إليها أيسر من شعر الغناء؟

هكذا بدأت علاقة الشاعر بعتبة كل منهما يحاول استغلال صاحبه لمصلحته الخاصة. ولكن العلاقة بينهما لم تقف عند ذلك الحد المادى. فعتبة يسرها ويرضى كبرياءها أن يكون الهائم بها المشغوف بحبها ذا مظهر حسن حيث أن قدرها وخطرها يرتفعان بقدر ما يرتفع قدر المذب فى سبيلها.. على حين كان شاعرنا ما يزال فقيرا مغمورا. وقد كان علاج ذلك عندها أن خلت بالشاعر يوما من الأيام وأبدت اهتمامها بشأنه وناولته بضع مئات من الدنانير كى يرفع بها مستواه؛ وذلك بشراء ملابس فاخرة وعطور وما إلى ذلك

وقد كان هذا مبدأ تحول خطير فى نظرة الشاعر إلى عتبة؛ فلم تعد صلته بها نوعا من عبث الشباب أو وسيلة إلى تحقيق ربح عادى، ولكن حبا شريفا عميقا فهى فى رأيه ذلك الملاك الرحيم الذى لا يبادله حبا بحب وإخلاصا بإخلاص فقط، بل يشفق عليه ويفكر فى أمره ويسعى إلى رفع مستواه المادى والأدبى.. فكيف لا يحبها إذن ويسرف فى حبه لها. أما عتبة فلا تزال حيث بدأت ولا يزال طرفها متعلقا بالخليفة (١) أو أحد أمراء البيت المالك، ولا يزال أبو العتاهية فى نظرها ذلك الشاعر المغمور الذى لا يجيد شيئا ولا يصلح لشئ إلا التغنى بجمالها والعذاب فى سبيلها. وقد اتبعت معه سياسة ماكرة ملتوية المراد بها إطالة تعذيبه وهيامه، وذلك بأن تدنيه وتقربه وتعده وتمنيه كلما اشتد به اليأس منها وعزم على نفض يده من شأنها.. ثم تمهله وتتغافل عنه كلما اشتد هيامه بها وإلحاحه عليها.. وأشعاره تمثل لنا الحالين. وإذا شئت فاستمع إليه وقد طلبت صراحة أن يتغنى بحبها حتى

(١) ذهبت صاحبة « Two Queens of Baghdad » إلى أن المهدى كان يحب عتبة، وليس فى الرجم الذى أشارت إليه ما يفيد ذلك. ولكنها أخطأت فى فهم العبارة

يعرفه القاصى والدانى :

أعلمت عتبة أننى منها على خدر مطل
وشكوت ما ألقى إليهـــا والمدامع تستهل
حتى إذا برمت بما أشكو كما يشكو الأقل
قالت فأى الناس بعـــ ـم ما تقول فقلت كل

أو شئت فاستمع إليه إذ يشكو هجرها له :

بخلت على بودها وصفائهـا ومنحتهاردى وبعض صفائى
فتخالف الأهواء فيا بيننا والوت عند تخالف الأهواء

فإذا أضفنا إلى ذلك ما بدأت به من إعطائه قدرا عظيما من المال مظهرة عنايتهـا به وما انتهت إليه من رفضها الزواج منه رفضا باتا رغم توسط الرشيد .. ازددنا يقينا بصحة ما ذهبنا إليه من أنها لم تكن جادة ولا مخلصة (٢) فى حبها له

وقد كان من نتائج ذلك السلوك المضطرب أن ساءت العلاقة بين الشاعر والمهدى؛ فقد كان من الضرورى لعتبة أن تقدم لأبى العتاهية سببا معقولا لتردها فى أمر الزواج وإدبارها عنه كلما أقبل عليها . ولم يكن من العسير عليها أن تدعى أنها إنما تفعل ما تفعل خوفا من إثارة غضب الخليفة وزوجه اللذين كانا يحرصان على بقائها فى خدمتهما وانقطاعها إليهما . وازداد الطين بلة حينما أرق الخليفة وأرعد على أثر سماعه شعرا لأبى العتاهية يعرض فيه بعتبة ويقحم الخليفة فى أمره :

ألا إن ظبيـا للخليفة سادنى ومالى على ظبى الخليفة من عدوى

وما كان من الخليفة إلا أن جلده وسجنه ثم نفاه إلى الكوفة؛ بل كاد يقتله بتهمة الزندقة لولا أن تدخل يزيد بن منصور خال المهدى لمودة كانت بينه وبين الشاعر

كان من الطبيعى أن ينقم الشاعر على المهدى (٣) الذى أيقظه من حلمه الجميل على صوت السياط وهى تلهب ظهره وتفرى جلده. وهنا أخذت تجاوب الشاعر فى طفولته وبغضه للسادة والأمراء تستيقظ فى نفسه ، أليس الخليفة أحد أولئك الأمراء القساة الطغاة بل قائدهم وقدوتهم فيما يفعلون ؟ ألم يتخذ من سلطانه أداة للعدوان على شاعر بائس طموح لا جريرة له إلا أن أحب فتاة وأحبته ؟ ألم يلصق به ذلك اللقب البغيض الذى وجد فيه منافسوه من الشعراء مادة خصبة للعبث به ومن ذلك قول والبة ابن الحباب : —

كان فينا يكنى أبا إسحق وبها الركب سار فى الآفاق
فتكنى معتوهـــا بعتاه يالها كنية أتت بانفاق

وإذن فلا سعادة ولا استقرار للشاعر ولا للضعفاء من أمثاله حتى تبيد تلك الطائفة الطاغية المفسدة التى تتمثل فى الخليفة ومن حوله من سادة وأمراء وقواد

وهكذا كان حبه الفاشل سببا من أسباب تقلقل حقده على ذوى الجاه والنفوذ فى عصره على نحو ما سنبينه بعد

وقد قضى الشاعر بقية أيام المهدى صامتا عن عتبة لا يكاد يذكرها بشئ خوفا من الخليفة . وما كاد الأخير يقضى نحبه حتى شعر أبو العتاهية بالأمن بعد الخوف والفرج بعد الضيق كما يصوره قوله : —

مات الخليفة أيهـا الثقلان فكأننى أفطرت فى رمضان

وقد ذهب بعض النقاد إلى أن الشاعر إنما يعبر هنا عن أسفه لموت الخليفة وأنه إنما يشعر بما يشعر به كل من أفطر عمدا فى رمضان.. ولكن هذا فى نظرنا تأويل بعيد كما أنه يناقض تلك الأبيات المشهورة التى قالها أبو العتاهية فى موت المهدى والتى تبدو فيها روح الشماتة الوضيعة . قال الشاعر مشيرا إلى جوارى المهدى : —

رحن فى الوشى وأصبحـــ ـن عليهن الروح
كل نطاح من الدهـــ ـر له يوم نطوح
نح على نفسك يامســـ ـكين إن كنت تنوح
لموتى وإن عمـ ـرت ما عمر نوح

يتبع

محمد الكفراوى

(٢) ذهب الأستاذ أحمد برانق فى كتاب له عن أبى العتاهية إلى أن عتبة كانت مخلصة فى حبها للشاعر وإنما رفضت الزواج منه لكبلا تغضب سيدتها (زوج المهدى) وليت شعرى لم استمرت على رفضها حتى بعد موت سيدتها ؟

(٣) كان المهدى أول من نادى شاعرنا بأبى العتاهية

٤٣ ، ٣٨